

## التماسك النصي عند عبد القاهر الجرجاني في كتاب دلائل الإعجاز

### Textual coherence according to Abd al-Qaher al-Jurjani in “Dalā'il al-I'jaz”

إعداد الدكتور: محمود بن يحيى بن أحمد الكندي

أستاذ مساعد، جامعة نزوى، سلطنة عمان

البريد: [mahmoodyahya@hotmail.com](mailto:mahmoodyahya@hotmail.com)

#### ملخص:

لعبد القاهرة نظرة دقيقة في تماسك النص، ولاغرو أن يكون تمييزه لبلاغة الكلام عبر النظم مدخلا جيدا للدرس النصي؛ لأن النظم قائم في الأساس على التماسك وأخذ الكلام بعضه بسبب من بعض، وتبقى نظرية النظم خير شاهد على القدرة الفاعلة في تعامل عبد القاهر مع النص في صورة كلية، وقد بنى عبد القاهر نظريته إلى ترابط الكلام على أساس شكلي ودلالي، فكان يبحث عن تماسك المعاني والتراكيب، على مستوى الوظائف النحوية في المفردات، ثم على مستوى الجمل، وصولا إلى الترابط بين تتابعات الجمل في بعض الأحيان. تشكلت رؤية عبد القاهر في تماسك النص على أساس نحوي وأساس تداولي؛ فللبنية دور فيه كالعطف والإحالة، كما للمتكلمين دور في إخراج الكلام وفق ما يختلج في النفس، وبرزت عند عبد القاهر جوانب شائعة من أشكال الترابط النصي كالعطف والإحالة والانسجام الدلالي، وكذلك برزت لديه نظرات لم تشع في كتب نحو النص مثل إشارته إلى عطف المجموع على المجموع وعطف القصة على القصة، والفصل في كونه استراتيجية تماسك نصي.

**الكلمات المفتاحية:** عبد القاهر، ترابط نصي، انسجام النص، اتساق النص

## Textual coherence according to Abd al-Qaher al-Jurjani in “Dalā’il al-I’jaz”

By Dr.: Mahmoud bin Yahya bin Ahmed Al-Kindi

Assistant Professor, University of Nizwa, Sultanate of Oman

### Abstract:

The current research paper aims to demonstrate the concept of Textual coherence in “Dalā’il Al-I’jaz” (Intimations of Inimitability) by Abd al-Qahir Al-Jurjani. The main factor that engaged us to consider this concept through Al-Jurjani’s is what I found that Al-Jurjani has looked at Textual coherence from a different angle. In his study of the “Inimitability” of the Quran, he introduced the theory of “Nazm” (The theory of Construction); where he investigated Arabic syntactic structure and grammatical principles from a semantic frame of reference. He considered the coherence of meanings and structures in different grammatical levels: words and sentences, in addition to the sequences of sentences in some cases.

Moreover, as in Al-Jurjani’s perception, the textual coherence is developed on grammatical and pragmatic basis to frame multiple structures: deep one and surface structure of a speech. Related to this, he studied the contribution of coordination, referral, and semantic harmony in textual coherence. Yet, there are some attractive ideas that were introduced by Al-Jurjani and they are still need more attention from researchers. For example, his idea of the coordination of one whole structure to another whole structure, and one semantic unit to another, and the separation in being a strategy of textual coherence.

**Keywords:** Al-Jurjani (Abd al-Qahir), “Dalā’il Al-I’jaz” (Intimations of Inimitability), textual coherence, textual cohesion, textual consistency.

## المقدمة:

بدأت الدراسات اللغوية عند العرب لخدمة النص القرآني، وكان تعييدها لنحو الجملة، مدخلا لتحقيق هدفها الأساس تضافرت معه بقية علوم اللغة عندهم، وفي كل مرحلة وفي كل علم يطورون رؤيتهم؛ لتكون الأنسب والأفضل في فهم النص القرآني وتفسيره، وقد بدأ الجدل بينهم على مكن إعجازه في وقت مبكر؛ فكانت مباحث إعجاز القرآن إسهاما في درس اللغوي لاسيما النصي منه، وفي هذا السياق تأتي نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني.

جرى تصنيف إسهام عبد القاهر في النظم على أنه من مباحث علم البلاغة، لكن تطور علم اللغة جعل يوجه هذا الإسهام وجهات متعددة، ويستفيد منه مع ظهور أي نمط من أنماط درس اللغوي يعالج النص في صورته الكلية، فالنحو الجمالي والأسلوبية وعلم لغة النص كلها نظرت لهذا الإسهام بعين الرضى فالإعجاب، وسبب كل ذلك وصول عبد القاهر إلى بيت القصيد من الفكر اللغوي ممثلا في نظرية النظم وتطبيقها على نص محكم وهو النص القرآني، وهذا البحث يأتي لسبر إسهام عبد القاهر في جزئية نصية مخصصة وهي التماسك وأدواته.

وسؤال إشكالية هذه الورقات: هل كان لعبد القاهر نظرة في تماسك النص؟ وما مظاهر تماسك النص لديه؟ وللوصول إلى إجابة هذه الإشكالية قسمت العمل قسمين:  
الأول: تناولت فيه بعض الإشارات النظرية للتماسك النصي عند عبد القاهر، مثلت قواعد انطلق منها في مستوى الإجراء.

الثاني: مظاهر التماسك النصي التي يمكن قراءتها في أعماله وتحليلاته في حديثه عن نظرية النظم. ولا يسعى البحث إلى إسقاط المصطلحات النصية المعاصرة على أعمال عبد القاهر، وإنما يستفيد منها، ويلتزم بما يستعمله من مصطلحات قد تكون موازية للمصطلحات المعاصرة.

## أهداف البحث

- يهدف هذا البحث من خلال مسألة مدونة تراثية من منظور حديث إلى:
- تبين منزلة الترابط النصي في النظرية اللغوية العربية من خلال كتاب دلائل الإعجاز.
  - الكشف عن بعد ثري من التناول النصي في البلاغة العربية.
  - الإسهام في ردم الهوة المتوهمة بين مكونات التراث ومعطيات درس اللساني المعاصر.
  - البرهان على أولوية البحث النصي في النظرية العربية؛ إذ يقدمها نظرية رائدة في "نحو النص"

## أهمية البحث:

تتمثل أهمية هذا البحث في نظرنا من كونه يكشف عن بعد حديث في مدونة تراثية غنية متعددة في ذات الآن، ولا يحفل بإسقاط ما لا يوجد في المدونة،

فهو يلتزم بحدود المنجز في المدونة والاحتياط عن الوقوع في الإسقاط قدر الإمكان أو عن الوقوع في تقويل النص ما لم يقله، وهو محاولة في الكشف عن بعد طريف في نظرية النظم يتمثل في منزلة الترابط النصي فيها.

### القسم الأول:

#### بعض الأسس النظرية لنظرة عبد القاهر الجرجاني للترابط النصي:

حفلت الخزانة اللغوية العربية بالكثير من كنوز الدراسات التي ما فتئت تشي بالجديد، مواكبة ما يصل إليه العقل البشري من تجديد في الدرس اللغوي، وليس من نافلة القول أن يكون المخزون العربي إرث لم يكشف مخبوءه؛ فهي حقيقة تؤكدها البحوث اللغوية الجادة المنصفة، غير أن بعض الدارسين أصبحوا يتتبعون التراث في ضوء ما يستجد من نظريات في الأمم الأخرى، وقد يتعسفون في التأويل والاقْتباس ليدلوا على صدق مبتغاهم، وكأنما وضعوا التراث في قدسية، فيها يشتمل على كل ما يمكن أن يستجد من درس لغوي، وغدا خلو التراث من بعض الأفكار الحديثة تهمة يجب على الغيور أن يدافع عنها. كما يقول أحدهم:

"على أننا ينبغي أن نعيد النظر فيما اتهم به بعض المحدثين نحاة العرب من أنهم قصرُوا جهودهم على نحو الجملة، ولم يتجاوزوها إلى النص، ومن ثم لم يتعد تحليلهم للجملة بيان وظائف الجملة: كالفاعلية والمفعولية داخل الجملة والعلامة الإعرابية لكل وظيفة (1).

ولا أرى الأمر من هذا الباب، وإنما هي سلسلة من الدرس اللغوي العربي ازدهرت، ولم تجد الذي يصل فيها ما انقطع، فقد نضح نحو الجملة لديهم من منطلق النص، وكانوا يمارسون أشكالاً شتى من النصوص، ويتقنون نظريتهم اللغوية. غير أنها لم تتبلور في بعض جوانبها، حيث جمد العقل العربي عن مواصلة الطريق الجاد، حين قنع بالترديد والتلخيص والحواشي.

#### 1. من الجملة إلى النص:

استثمر عبد القاهر الجرجاني نحو الجملة في سبر النص وفهم مغازيه وبيان وجوه بلاغته ثم إعجازه، وعبد القاهر نحوي وبلاغي بالمعنى التراثي، وأسلوب نصي في المعنى المعاصر، وكل هذه الاستحقاقات بدون مبالغة-إنما استحقها من فطنته في تسخير نحو الجملة لآفاق لغوية أوسع وأرحب في الدرس البلاغي والنصي. قدّم عبد القاهر كتابه دلائل الإعجاز ببيان فضل علم اللغة عموماً والنحو خصوصاً، ثم ثنى على علوم الشعر، فهو يرى أنّ من علوم اللغة والنحو يُدرك مكنون الشعر ومزايه، وبعلم اللغة يمكنك المفسر قدرة على إدراك بلاغة الكلام ومعانيه، بل يرى أن النقص في ذلك "يدخل على صاحبه من جهة نقصه في علوم اللغة" (2)، ويرى أن باب النظر في النص والتفسير هو النحو خاصة، يقول معاتباً من قُلب من شأن النحو وتصدى للتفسير: "انظروا في الذي اعترفت بصحته وبالحاجة إليه هل حصلتموه على وجهه؟ وهل أحطتم بحقائقه؟ وهل وفيتم كل باب منه حقه؟ وأحكمتموه إككاماً يؤمنكم الخطأ فيه إذا أنتم خضتم في التفسير؟ وتعاطيتم علم التأويل، ... وهل رأيتم إذ قد عرفتم صورة المبتدأ والخبر، وأن إعرابهما الرفع أن تجاوزوا ذلك إلى أن تنظروا في أقسام خبره، فتعلموا أنه يكون مفرداً وجملة. وأن المفرد ينقسم إلى ما يحتمل ضميراً له، وإلى ما لا يحتمل الضمير.

(1) عبد الرازي أحمد، نحو النص بين الأصالة والحداثة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008 ص134.  
(2) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992، ص7.

وأن الجملة على أربعة أضرب، وأنه لا بد لكل جملة وقعت خيراً لمبتدأ من أن يكون فيها ذكر يعود إلى المبتدأ، أن هذا الذكر ربما حذف لفظاً وأريد معنى ... وأن فائدة التخصيص غير فائدة التوضيح؟ كما أن فائدة الشياخ غير فائدة الإبهام ...<sup>(1)</sup>. وهذا يشي بمنزلة الجملة في رؤية عبد القاهر إلى النص.

## 2. النص محور الدراسة عند عبد القاهر:

جاءت جهود عبد القاهر الجرجاني في خضم نظرة العلماء لقضية الإعجاز القرآني، والجدل الذي دار فيها، ولا شك أن هذا الجدل كان ذا أثر إيجابي في ثراء الدرس اللغوي؛ لأنه نمط من الدراسات ينطلق من نص يجعله محور تفكيره بداية ونهاية، ولا شك أن "مؤلفات الإعجاز ساهمت أكثر من غيرها في بلورة بلاغة النص والسياق بحكم أنها تداولت مقولة النظم أكثر من غيرها وحاولت تعريفها وإبراز وجه بلاغتها"<sup>(2)</sup>. والنظم معجمياً كما جاء في اللسان "التأليف، نَظْمُهُ يَنْظِمُهُ نَظْماً وَنِظَاماً وَنَظْمُهُ فَاثْتَنَظَمَ وَتَنَظَّمَ. وَنَظَّمْتُ اللَّوْلُؤَ أَي جَمَعْتَهُ فِي السَّلْكَ، وَالتَّنْظِيمُ مِثْلُهُ، وَمِنْهُ نَظَّمْتُ الشَّعْرَ وَنَظَّمْتُهُ، وَنَظَّمُ الأَمْرَ عَلَى المَثَلِ. وَكُلُّ شَيْءٍ قَرَنَتْهُ بآخِرٍ أَوْ ضَمَّمْتَهُ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، فَقَدْ نَظَّمْتُهُ. وَالنَّظْمُ: المَنْظُومُ، وَصَفَ بالمَصْدَرِ. وَالنَّظْمُ: مَا نَظَّمْتَهُ مِنْ لَوْلُؤٍ وَخَزْرٍ وَغَيْرِهِمَا"<sup>(3)</sup>.

ولا يتحقق إطلاق مصطلح النظم على مفهومه لدى البلاغيين، ولدى عبد القاهر الجرجاني خاصة إلا بإدراك معناه المعجمي أولاً، وإدراك ما يبتغيه من فهم عميق للتماسك بين أجزاء النص في كليته بصورة عامة ثانياً؛ إذ لا تتحقق دراسة النظم بغير دراسة تماسك النص بكل أشكاله، وهذا التماسك "يهتم بالعلاقات بين أجزاء الجملة وبين جمل النص وبين فقراته، وبين النصوص المكونة للكتاب"<sup>(4)</sup>، والتماسك نقطة التقاء محورية بين دراسة النظم عند عبد القاهر وبين علم اللغة النصي؛ فالتماسك أرضية النظم، وهو أهم عناصر موضوع علم اللغة النصي، ف"التحليل النصي يعتمد أساساً على التماسك في تحقيق النصية من عدمه"<sup>(5)</sup>.

وقد تحرى القدماء الدقة، حيث بنوا تحليلهم على الربط بين بنية النص اللغوية والدلالية، وقد تجلى هذا عند وقوفهم أمام النص القرآني؛ إذ تضافرت على الكشف عن أسرار إعجازه عدة أسس منهجية توصلوا بها إلى فهمه فهما صحيحاً.<sup>(6)</sup> وكان من الضروري أن يكتفوا أدوات تحليلهم لتكون مثمرة في تحليل النص؛ ولا سيما أنهم اعتبروا القرآن نصاً واحداً في مجموعه.

## 3. المعنى عند عبد القاهر في إطار النص وليس الجملة أو الكلمة:

يقول عبد القاهر: "اعلم أن معرفة الشيء من طريق الجملة، غير معرفته من طريق التفصيل"<sup>(7)</sup> وهذا النص صريح في تدبر عبد القاهر النصوص في صورتها الكلية، وهو صلب العمل النصي وموضوعه،

(1) السابق، ص30.

(2) صمود حمادي، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد، طرابلس، 3، 2010، ص473.

(3) لسان العرب، مادة نظم.

(4) الفقي صبحي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 1، 2000، ج1، ص97.

(5) السابق، ص97.

(6) عبد الرازي أحمد، نحو النص بين الأصالة والحداثة، ص167.

(7) الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1، 1991، ص157.

وقد سبق القول في انطلاق عبد القاهر من النص بصورته الكلية، غير أن هذا النص يشير إلى طريقتين متعاقبتين قد يتوازيان في مواضع وهما:

1. معرفة الشيء بالكلية وله طرقه وأدواته.

2. معرفة الشيء بالتفصيل وله طرقه وأدواته.

وكلاهما يخدم التحليل النصي، ويفضي إلى فهم أعمق لمكونات النص وغاياته، وقد صرح عبد القاهر بذلك - وإن بعبارات مختلفة - في مواضع عدة، وكانت منهجيته في البرهان على حقيقة الإعجاز في النظم قائمة على المسلكين السابقين.

ويجدر اقتباس نص آخر لعبد القاهر يشير فيه إلى فكرة يتكأ عليها النصيون المعاصرون في تحليل جمل النص وفهمه، حيث يقول:

" وليس إذا كان الكلام في غاية البيان، وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح، أغناك ذلك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفاً، فإن المعاني الشريفة اللطيفة لا بُدَّ فيها من بناءٍ ثانٍ على أوّل، وردّ تالٍ على سابق، أفلسَتْ تحتاج في الوقوف على الغرض من قوله:

" كالبدرِ أفرطَ في العلوِّ "

إلى أن تعرف البيت الأول، فنتصوّر حقيقة المراد منه، ووجه المجاز في كونه دانياً شاسعاً، وترقم ذلك في قلبك، ثم تعود إلى ما يعرضُ البيت الثاني عليك من حالِ البدر"<sup>(1)</sup>.

والنص السابق - وإن كان يناقش التشبيه - يقرر ما مفاده: ليس لمحلل النص أن يتبين المعنى المضمّن في جملة أو شطر بيت أو بيت من الشعر إلا إذا نظر إليه في سياق دلالة ما جاوره من جمل سابقة أو لاحقة، وهو في ذلك يلتقي مع ما يراه النصيون المعاصرون؛ إذ "تصبح المتتالية متماسكة دلالياً عندما تقبل كل جملة فيها التفسير والتأويل في خطٍ داخلي، يعتبر امتداداً بالنسبة لتفسير غيرها من العبارات المماثلة في المتتالية"<sup>(2)</sup>.

ويذهب عبد القاهر الجرجاني أن النظرة الكلية أسبق إلى النفوس من التفصيل "وتجد الجمل أبداً أسبق إلى الأوهام وتقع في خاطر أولاً، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها"<sup>(3)</sup>، وهذا التصريح يؤكد انطلاق الجرجاني من كلية النص وصولاً إلى تفاصيله في مستوى الكل، أي أنه يدرس الكلمة ثم الجملة ثم متتالية الجمل في إطار الكل الجامع لها وهو النص، وليست مستقلة عن نظمها وسلوكها التي نظمت فيه.

وخصوصية منهج الجرجاني تكمن في تقديم تفسير لغوي موضوعي في أغلب المواضع لوجوه النظم، فهو ينظر للكلام بين الاستقامة النحوية والصحة الدلالية، وذلك من خلال كشف فاعلية النحو في توضيح النص وتفسيره واستخراج طاقاته<sup>(4)</sup>.

#### 4. تقسيم عبد القاهر الجرجاني النص على أساس دلالي:

لم يصرح عبد القاهر بمصطلحات نصية معاصرة مثل: البنى الكبرى والبنى الصغرى، ولا بمصطلحات موازية لها، لكنه كان يمارس النصوص على أساس فهم عميق واع لأنساقه وبناءه.

(1) السابق، ص ٤٤١.

(2) فضل صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط 1، 2004، ص 304.

(3) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 161.

(4) بحيري سعيد، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، ط 1، 1999، ص 154.

والمتمأل في تمثيله بالقطع والنصوص الشعرية يدرك نظرته إليها على هذا الأساس، ويمكن أن نستشف ذلك من نقاشه النص الآتي [الطويل] معتبرا إياه بنية متكاملة في صورة شعرية واحدة:

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِئَى كُلِّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ  
وَشَدَّدَتْ عَلَى دُهُمِ الْمَهَارَى رِحَالَنَا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحٌ  
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَأَلْتُ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

"... وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال:

"ولمَّا قضينا من مئى كل حاجة "

فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فروضها وسُنَّهَا، من طريقٍ أمكنه أن يُقصر معه اللفظ، وهو طريقة العموم، ثم نبّه بقوله:

"ومسح بالأركان من هو ماسحُ

على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر، ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر، ثم قال:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

فوصل بذكر مسح الأركان، ما وليه من زَمِّ الركاب وركوب الركبان، ثم دلّ بلفظة الأطراف على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر، من التصرف في فنون القول وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتظرفين، من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء، وأنبا بذلك عن طيب النفوس، وقوة النشاط، وفضل الاغتباط، كما توجبه ألفة الأصحاب وأنسأة الأحباب، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الإياب، وتنسّم روائح الأحبة والأوطان، واستماع التهاني والتحايا من الخلآن والإخوان...<sup>(1)</sup>

في النص السابق قسّم عبد القاهر الجرجاني بنية النص إلى ثلاث وحدات، وذلك على أساس المعنى والدلالة:

الأولى: في قوله:

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِئَى كُلِّ حَاجَةٍ

الثانية في قوله:

ومسح بالأركان من هو ماسحُ

وشدّدت على دهم المهاري رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ

الثالثة في قوله:

"أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا "

فكأنما النص بكليته حركة للحدث كل وحدة مرحلة فيه. ومع أن الشرط جعل من الأبيات الثلاثة بناء نحويًا وحدا؛ ففعل الشرط في أولها، وجوابه في آخرها، إلا أن تقسيم عبد القاهر لها كان على أساس الدلالة. وقد تعامل مع النص السابق كوحدة متسقة قام بتحليله وتقسيمه إلى وحدات أصغر على أساس دلالي، وهذا يجعله موافقا لما يراه النصيون من طبيعة دلالية في تحديد الأبنية الصغرى والكبرى<sup>(2)</sup>.

(1) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص22.

(2) أشار فان دايك إلى هذه القضية في أكثر من موضع في كتابه: علم النص، ص75 مثالا.

وفي موضع آخر مايز فيه بين مجموعة من الأبيات لشاعرين صرح بمصطلح القطعة الذي يرادف مصطلح البنية أو الوحدة حيث يقول: "وينبغي أن تعلم أن هذه القطعة ضد الأولى"<sup>(1)</sup>، وعبد القاهر يرى أن دراسة النص ومعرفة ما يميزه وبيان خصائصه لا تتأتى من النظر في الأبيات منفصلة مستقلة، بل في كونها مجتمعة تؤلف قطعة أو وحدة دلالية مترابطة، "واعلم أنّ من الكلام ما أنت ترى المزيّة في نظمه والحسن، كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضمّ بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه، ولا تقضي له بالحق والأستاذية وسعة الذّرع وشدة المنة حتى تستوفي القطعة وتأتي على عدّة أبيات"<sup>(2)</sup>.

### 5. ترابط الكلام في النطق وفق ترتبه في النفس:

اهتم عبد القاهر الجرجاني بالنظم في مستويين، وهما في الأصل مرحلتان متعاقبتان: ما يكون في النفس مترتبا من المعاني، والأخرى ما ينتظم من اللفظ المسبوك والنظم المرتب في الكلام منطوقا، فهما ما يكون في الوجود بالقوة، وما يكون موجودا في إثره بالفعل، أو السطحي والعميق من مصطلحات اللسانيات التوليدية، أو اللغة والكلام عند سوسير، والنظم في نظر عبد القاهر كلام يترجم ما يعتلج في النفس، " فليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"<sup>(3)</sup>.

فالنظم أو معاني النحو هو خضوع الكلام لنواميس الفكر، وبروزه على هيئة تحاكي الروابط المنطقية التي يقيمها بين المعاني فتكون البنية اللغوية صدى لبنية عقلية منطقية سابقة<sup>(4)</sup>، وهنا يتفق عبد القاهر مع بوجراندي وغيره من علماء النص على أن منتج النص يبدأ بترتيب المعاني والأفكار في نفسه، ثم يختار لها الألفاظ المناسبة، فيرتبها ترتيبا خاصا طبقا لهذه المعاني دون فصل زمني بينها<sup>(5)</sup>.

وعندما يقرر عبد القاهر "أن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس"<sup>(6)</sup>؛ فهو يردّ الكلام على عمليتين: الأولى غير لغوية نفسية تدور في الذهن، حيث يحدث التلاؤم بين اللفظ والمعنى، أو ما يطلق عليه عملية الاختيار، تعقبها الثانية وهي لغوية حيث يوجد التأليف، فهما عمليتان الأولى خارج الواقع اللغوي، والثانية داخل الواقع اللغوي.

### 6. تركيز عبد القاهر الجرجاني على الجانب الدلالي في الترابط:

يقول عبد القاهر " ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"<sup>(7)</sup> ويفهم من هذا الكلام مدى تشبث عبد القاهر بالتماسك الدلالي، وأنه ناتج عن معان مرتبة أساسا في الفكر، فالمعنى يولد عميقا في النفس ويظهر كلاما في النطق منظوما في ألفاظ بعضه بسبب من بعض،

(1) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص314.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص88.

(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤٩.

(4) صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص463.

(5) عبد الراضي أحمد، نحو النص بين الأصالة والحداثة، ص141.

(6) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٥٦.

(7) السابق، ص ٤٩.



وقد أشار إلى تحول المنطوق من فكر إلى كلام في قوله: "واعلم أن ما ترى من أنه لا بد منه من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص ليس هو الذي طلبته بالفكر ولكنه شيء يقع بسبب الأول ضرورة من حيث إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب اللفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق"<sup>(1)</sup>.

ويتضح من مجمل النصوص السابقة سعي عبد القاهر الجرجاني لتكوين مبادئ دلالية في تفسير العدول في إطار القواعد النحوية الضابطة للنظام اللغوي<sup>(2)</sup>، ونجد في مواضع عديدة من دلائل الإعجاز نصوصاً تؤكد المنحى العقلي الناتج عن تركيز عبد القاهر عملية النظم على العلاقات الدلالية بالدرجة الأولى<sup>(3)</sup>، ويؤكد علم لغة النص المعاصرة على الترابط في المستوى الدلالي، ويثبت أن الترابط الأفقي الشكلي محكوم بقواعد اتساق المعاني وانسجام الدلالة؛ فالعلاقات بين الكلمات في الجمل المركبة والتتابعات ذات طبيعة دلالية، وتكون العلاقات النحوية تابعة لها أحياناً؛ فالأمر يتعلق في المقام الأول بوصف العلاقات بين معاني الجمل<sup>(4)</sup>.

ولا غرو أن يهتم عبد القاهر بالمعاني ويبرهن على صدق نظريته يبحث ما يؤكد أولويتها في مزية الكلام، وأن اللفظ تابع للمعنى ووعاء له، وفي النظم "يتحقق التلازم بين العلاقات الدلالية والتركيبية"<sup>(5)</sup>. وهذه المصادرة التي ينطلق منها عبد القاهر في دراسة التماسك سوف تسيطر على جل المباحث، ويغدو توضيحه للتماسك مطلباً لبيان تماسك الدلالة، ولو كان أساس الترابط شكلياً نحوياً بالدرجة الأولى، وهو في ذلك يقدم إشارات جلية في التحليل النصي سعياً إلى إدراك استقامة التماسك، ومنه يدل على مستوى البلاغة فالإعجاز في النص.

## القسم الثاني:

### من أشكال الترابط النصي عند عبد القاهر الجرجاني:

يمكن تلمس أشكالاً متعددة من وجوه الترابط النصي التي تجلت في أعمال عبد القاهر الجرجاني، في المستوى النحوي والدلالي والتداولي، وكل هذه الأبعاد تنصهر عند الجرجاني في بحثه نظم الكلام في صورة مخصوصة؛ "إذ إن النحو يقوم بتحليل العلاقات بين العلامات في المستوى الأفقي والرأسي، وتحلل الدلالة صلة العلامات بالمدلولات، وتعنى التداولية بتوصيل دلالات العلامات"<sup>(6)</sup>، ومن هنا يصبح تصنيف أدوات التماسك مستقلة عن بعضها عسراً في البحث الإجرائي، خلافاً للتظهير، وفي هذا المقام سنتلمس استراتيجيات الترابط التي تجلت في فكر الجرجاني في بلورة فكرة النظم لديه.

### 1. الترابط الأفقي شرط صحة النظم (السبك):

يوفر هذا الشكل من الترابط الأرضية اللازمة للنظم كما عرفه عبد القاهر الجرجاني في صورته الأفقية، إذ يوضع الكلام كما يقتضيه علم النحو، و"معلوم أن النظم ليس سوى تعليق للكلم بعضها ببعض،

(1) السابق، ص ٥٢.

(2) بحيري سعيد، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، ص 154.

(3) صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص 4٥٣.

(4) فان دايك، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ص 48.

(5) بحيري سعيد، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، ص 181.

(6) بحيري، علم لغة النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط 1، 1997، ص 147.

وجعل بعضها بسبب من بعض"<sup>(1)</sup>، وهو أحد معايير النصية لدى دي بوجراند حيث يتحقق الترابط الرصفي عندما تنتظم العناصر بصورة يؤدي السابق منها إلى اللاحق، ويتحقق بأدوات لفظية شكلية<sup>(2)</sup>، ولاشك أن نحو الجملة يمثل الفاعل الأكبر في الكشف عن كنه هذا النوع من الترابط النصي، لاسيما وأن هذا الترابط "ذو طبيعة خطية أفقية"<sup>(3)</sup>.

ونظرة عبد القاهر للنظم مبنية أساسا على حتمية البناء الأفقي للجملة والمزية في كيفية تعلق أجزائها وترابطها بصورة فريدة، وهو يرى أن "مختصر الأمر أنه لا يوجد كلام من جزء واحد ... ألا ترى أنك إذا قلت كأنّ يقتضي مشبهاً ومشبهاً به كقولك: كأنّ زيد الأسد. وكذلك إذا قلت لو ولولا وجدتهما يقتضيان جملتين، تكون الأولى جوابا للثانية"<sup>(4)</sup>، فالنمو الرصفي للنص حقيقة مؤكدة لديه، فلا نظم في غير هذا الشكل من نمو الوحدات اللغوية وترابطها وصولاً إلى كلام بليغ معجز.

## 2. التقديم والتأخير:

تناول عبد القاهر الجرجاني التقديم والتأخير باعتباره ضرباً من ضروب البلاغة ووسيلة من وسائل تحسين الخطاب، وعلى هذا الأساس ناقشه وبين أشكاله مميّزا بين التقديم والتأخير في سياق كل من الاستفهام والنفي والخبر، وكان يبحث في ذلك عن انسجام الخطاب، وأن يكون مترجماً للمعنى الذي يريد المتحدث في نفسه؛ فيكون الكلام على نمط تكوينه، وترتيب بنيتة الوظيفية النحوية مطابقاً للمعنى الذي رتبته في النفس قبل إنشاء الخطاب، "ويشهد لما قلنا من أن تقديم المحدث عنه يقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه له أنا إذا تأملنا وجدنا هذا الضرب من الكلام يجيء فيما سبق فيه إنكار من منكر، نحو أن يقول الرجل: ليس لي علم بالذي تقول، فتقول له: أنت تعلم أن الأمر على ما أقول، ولكنك تميل إلى خصمي. وكقول الناس: هو يعلم ذلك وإن أنكر، وهو يعلم الكذب فيما قال وإن حلف عليه. وكقوله له تعالى: "ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون"<sup>(5)</sup>.

ويرى عبد القاهر في تغيير الرتبة عاملاً من عوامل الربط؛ فإذا قدم المتحدث الظرف، ثم أصر العامل وهو الفعل، فذلك يجعل من الكلام المتقدم والمتأخر قطعة متماسكة من القول تقوم على الإفادة من ذاكرة المتلقي الذي يختزن ثم يسترجع رابطاً بين المعمول وهو الظرف، والعامل فيه هو الفعل<sup>(6)</sup>.

## 3. الحذف:

تناول النحاة العرب ظاهرة الحذف حسب مقتضى البنية الإعرابية والعاملية، ووفق رد الفروع إلى الأصول، وقد مكنهم هذا من إدراك أسس هذه الظاهرة وشروطها وأنواعها، كما مكنهم من إدراك أبعادها المختلفة ولاسيما دورها الرباطي، وهو دور يتجاوز حدود بنية الإعراب والعامل،

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص4.

(2) ديوبجراند، النص والخطاب والإجراء، ص103.

(3) بحيري، علم لغة النص، ص120.

(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص7.

(5) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص133.

(6) خليل محمود، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة، الأردن، ط2، 2009، ص229.

"ولا يستقيم إلا إذا نزل الكلام في سياقه المقالي والمقامي"<sup>(1)</sup>. وقد كانت نظرة عبد القاهر إلى الحذف حسب هذا المنطلق ووفق هذه الرؤية، وهو في بحثه عن قيمة الحذف يصدر عن القواعد النحوية والاعتبارات التداولية.

وباب الحذف لدى عبد القاهر الجرجاني "دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة"<sup>(2)</sup>، والحذف لديه قد يكون ضرورة لانسجام والنص ترابط في بعض المواضع؛ ففي تعليقه على الحذف الوارد في قوله تعالى:

"(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) (القصص : 23)" ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع إذ المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسفون أغنامهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالتا: لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما ... ففي حذف المفعول وترك ذكره فائدة جليظة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه"<sup>(3)</sup>، ومن جملة ما لا يستقيم بذكر المحذوف انسجام النص إذ لو ذكرت هذه المفاعيل لكان نشازا.

#### 4. العطف:

تدرج عبد القاهر في إثبات منزلة العطف في بلاغة الكلام، واعتبر الوصل والفصل بابا مهما في بلاغة الكلام وإعجاز القرآن، وسبيله في ذلك "النظر إلى فائدة العطف في المفرد، ثم يعود إلى الجملة فينظر فيها، ويتعرف حالها"<sup>(4)</sup>؛ حتى وصل إلى إشارات عميقة في ترابط النص وانسجامه عبر العطف.

وقد وصف عبد القاهر هذا الباب بأنه غامض وخفي دقيق صعب<sup>(5)</sup>، مع ما يحتاج إليه من معرفة النحو وإدراك العلاقات بين مقاصد الكلام ومدلولاته، وتأتي أهميته من هذا الباب في كونه مدخلا واسعا لمعرفة تماسك النص وانسجامه، وقد جاوز عبد القاهر بحثه في العطف نطاق العامل والمعمول والتبعية الشكلية بين المفردات؛ فقدم له معالجة وافية على نطاق الجملة ومتابعات الجمل.

ولم تقم مناقشة عبد القاهر لمسألة العطف بين الجمل على أساس شكلي فقط، بل كان المعول في ذلك على الجانب الدلالي؛ فالانسجام الدلالي بين الجملتين اللتين ارتبطتا بعلاقة عطف ضروري لاستقامة الكلام "فلو قلت: زيد طويل القامة وعمرو شاعر. كان خلفاً، لأنه لا مشكلة ولا تعلق بين طول القامة وبين الشعر، وإنما الواجب أن يقال: زيد كاتب، وعمرو شاعر، وزيد طويل القامة، وعمرو قصير"<sup>(6)</sup>. ومع استقامة الشكل في العطف إلا أن المعنى ياباه، وهذا الرائز في سلامة العطف دلالي، وينصب في عمق انسجام النص واتساقه.

ويؤكد ما ذهب إليه بقوله: "وجملة الأمر أنها لا تجيء حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفقاً للمعنى في الأخرى ومضافاً له، مثل أن زيدا وعمرا إذا كانا أخوين، أو نظيرين، أو مشتبكي الأحوال على الجملة،

(1) الشاوش محمد، أصول تحليل الخطاب، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001، ص1211.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص146.

(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص161.

(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص222.

(5) السابق، ص231.

(6) السابق، ص225.

كانت الحال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضمومة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك. وكذا السبيل أبداً<sup>(1)</sup>.

قاد تتبع الوصل في النصوص الشعرية والنثرية عبد القاهر الجرجاني إلى إدراك نصي عميق؛ فقد ميّز بين أشكال من الربط تحصل بالعطف، فقد رأى "أنه قد يؤتى بالجملة، فلا تعطف على ما يليها ولكن تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان. مثال ذلك قول المتنبي، من الوافر:

تولوا بغتة فكأن بيناً تهيبني ففاجأني اغتياً

فكان مسير عيسهم ذمياً وسير الدمع إثرهم انهمالاً

فقوله: فكان مسير عيسهم، معطوف على تولوا بغتة دون ما يليه من قوله ففاجأني<sup>(2)</sup>، وقد استنتج عبد القاهر من العطف في البيتين خواص تنصب في تماسك النص وانسجامه:

الأولى: أن العطف وقع بين جملتين، وهذا مما أشار إليه علم النحو أساساً في بحثه الجمل التي لها محل من الإعراب.

الثانية: توسط جمل أخرى بين الجملتين اللتين ارتبطتا بالعطف، وهي: (فكأن بيناً تهيبني، ففاجأني اغتياً) وهو توسط بغير أجنبي دلالة ومعنى؛ فعلاقة السبب هي مسوغ التداخل، وقد حصل التماسك الدلالي من كل ذلك.

الثالثة: ما يشير إليها بقوله: "وها هنا شيء آخر دقيق. وهو أنك إذا نظرت إلى قوله: فكان مسير عيسهم ذمياً وجدته لم يُعطف هو وحده على ما عطف عليه، ولكن تجد العطف قد تناول جملة البيت مربوطاً آخره بأوله"<sup>(3)</sup>، وهذا تطوير للفكرة بحيث لا ينسخ الخاصيتين السابقتين، فهما قائمتان في مقتضى العطف في البيتين، وهذا نص صريح في عطف المجموع على المجموع، وعطف النص على النص. ولا يخفى التدرج الذي طوره عبد القاهر في العطف ليصل به إلى أوسع حالاته الرابطة، "فأمر العطف إذاً موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة، وتعتمد أخرى إلى جملتين أو جمل، فتعطف بعضاً على بعض، ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك"<sup>(4)</sup>.

ويذهب عبد القاهر إلى أبعد من ذلك، فيرى أنه لا يستقيم العطف في بعض المواضع إلا إذا جعلنا العطف بين مجموعين، ومثل لذلك بقوله تعالى: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) (القصص: 44، 45)؛ فينبغي أن يكون عطف مجموع (وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ) إلى (مُرْسِلِينَ) على مجموع قوله: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ) إلى قوله: (الْعُمُرُ)<sup>(5)</sup>. فتراه حلل العطف على أنه عطف قصة على قصة، وعطف حدث على حدث.

(1) السابق، ص 225.

(2) السابق، ص 244.

(3) السابق، ص 245.

(4) السابق.

(5) السابق، ص 247.

وقد قاس عبد القاهر العطف على الشرط والجزاء؛ ليكشف عن دوره في تماسك النص، ويظهر الطبيعة المركبة لعطف المجموع على المجموع واحتياج المعطوفين لبعضهما؛ كي يتم الكلام ويستقيم المعنى، ويتضح تماسك الخطاب بمراعاة طبيعة تركيب العطف بين المجموع، ويتوقف فهم المعنى عليه<sup>(1)</sup>.

## 5. الفصل:

من عجيب اللغة أن يكون الفصل مبحثاً في تماسك النص، وهو تماسك دلالي محض، وقد بدأ عبد القاهر بنقاش الفصل بين الجمل قياساً على وجود وظائف التوكيد والصفة" إذ يكون الربط فيها بدون واسطة خلافاً للعطف فهو بواسطة حرف العطف، فكما "كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله، فيستغني بصلة معناه له عن واصل يصله وربطه، وذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به، وكالتأكيد الذي يفترق كذلك إلى ما يصله بالمؤكد كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتالي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة كانت مؤكدة للتالي قبلها، ومبينة لها"<sup>(2)</sup>.

وهذا النوع من الارتباط بين الجمل دلالي صرف لا يعتمد على الروابط الشكلية. والوظيفة النحوية التي قاس عبد القاهر العطف عليها وظيفة دلالية، مع ما يترتب عليها من إعراب شكلي، ويمكن أن يستنبط من أمثاله ثلاثة أشكال من ترابط الفصل: الفصل في سياق التأكيد، والفصل في سياق تغير الخطاب، الفصل بتقدير الاستفهام<sup>(3)</sup>.

وترابط الفصل بالتأكيد قد يكون بين جملتين أو أكثر، وتكونان غاية في الترابط واللحمة، وهذه المستويات تفهم من أمثلة عبد القاهر التي ساقها مرتبة؛ ففي قوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ) (البقرة: 2) قوله (لَا رَيْبَ فِيهِ)، بيان وتوكيد وتحقيق لقوله: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) وزيادة تثبت له<sup>(4)</sup>، فقد ربط التوكيد هنا بين جملتين. في حين ساق في موضع لاحق آيتين تمثيلاً للتأكيد الذي تجاوز ربطه أكثر من جملتين "ومثل ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (البقرة: 6،7) قوله تعالى: (لَا يُؤْمِنُونَ) تأكيد لثاني أول، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل قوله: (خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ) تأكيد ثانٍ أبلغ من الأول، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل، وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة"<sup>(5)</sup>. وقد بين أن الترابط في الآيتين السابقتين وقع بين أكثر من جملتين.

وقد بين عبد القاهر في مثال آخر أن الفصل يكون مع تغير الخطاب من الحكاية إلى الخبر، في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ) (البقرة: 11،12) "إنما جاء (إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ) مستأنفاً مفتتحاً بالأ؛ لأنه خبر من الله تعالى بأنهم كذلك. والذي قبله من قوله (إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) حكاية عنهم،

(1) خطابي محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991، ص106.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص227.

(3) خطابي، لسانيات النص، ص108.

(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص227.

(5) السابق، ص228.

فلو عطف للزم عليه مثل الذي قدمت ذكره من الدخول في الحكاية ولصار خبرا من اليهود، ووصفا منهم لأنفسهم بأنهم مفسدون. ولصار كأنه قيل: قالوا إنما نحن مصلحون، وقالوا إنهم هم المفسدون، وذلك ما لا يشك في فساد<sup>(1)</sup>. ويرى عبد القاهر الفصل هنا ضرورة لتماسك النص وانسجام الخطاب، بل يفسد المعنى بدونه؛ ومبرره في ذلك كون تغيير صيغة الخطاب موجبة للفصل؛ فبالفصل ينسجم الخطاب ويتسق ويزول عنه اللبس والغموض. وفي توضيحه للشكل الثالث من أشكال الترابط بالفصل في سياق تقدير السؤال يقول: "وإذا استقرت وجدت هذا الذي ذكرت لك من تنزيلهم الكلام إذا جاء بعقب ما يقتضي سؤالاً منزلة إذا صرح بذلك السؤال كثيراً. فمن لطيف ذلك قوله من الكامل:

زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

لما حكى عن العواذل أنهم قالوا: هو في غمرة، وكان ذلك مما يحرك السامع لأن يسأله فيقول: فما قولك في ذلك؟ وما جوابك عنه؟ أخرج الكلام مخرجه إذا كان ذلك قد قيل له، وصار كأنه قال: أقول صدقوا أنا كما قالوا، ولكن لا مطمع لهم في فلاحي. ولو قال: زعم العواذل أنني في غمرة وصدقوا لكان يكون لم يصح في نفسه أنه مسؤول، وأن كلامه كلام مجيب، ومثله قول الآخر في الحماسة، من الكامل:

زعم العواذل أن ناقة جندب بجنوب خبت عريت وأجمت

كذب العواذل لو رأين مناخنا بالقادسية قلن: لج ودلت

وقد زاد هذا أمر القطع والاستئناف وتقدير الجواب تأكيدا بأن وضع الظاهر موضع المضمرة فقال: كذب العواذل، ولم يقل: كذبن. وذلك أنه لما أعاد ذكر العواذل ظاهراً كان ذلك أبين وأقوى لكونه كلاماً مستأنفاً من حيث وضعه وضعا لا يحتاج فيه إلى ما قبله، وأتى فيه مأتى ما ليس قبله كلام<sup>(2)</sup>.

ونستشف من النص السابق أن تقدير السؤال متخيل في بنية الأبيات العميقة، ويأتي الكلام متصلاً في بنية القطع، ولا يمكن أن يحدث الوصل؛ إذ لو كان لفسد تماسك النص، وأدى إلى لبس معناه وغموض دلالاته. "وبهذا يساهم زوج الاستفهام المقدر/ الجواب في جعل الكلام متصلاً ببعضه ببعض دون وجود رابط شكلي، وهو وسيلة قوية من حيث الربط، وما ينبغي الانتباه إليه هو أن الجرجاني ضرب أمثلة تتراوح بين البيت والبيتين أي أن جواب السؤال قد يكون في نفس البيت وقد يكون في البيت اللاحق"<sup>(3)</sup>.

### الفصل مع فعل القول:

هذا نوع من الترابط بينه عبد القاهر الجرجاني في معرض حديثه عن ترابط الفصل بتقدير السؤال، وهذا النوع من الترابط وإن كان يصدق عليه الفصل بتقدير السؤال إلا أنه يمكن أن يفرد له مقال خاص باعتبار تمحوره حول فعل القول، وقد مثل عليه عبد القاهر بأمثلة عديدة كقوله تعالى: (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى (26) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (28) قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قَالَ أَوْلُو جِنَّتِكَ بَشِيءٌ مُبِينٌ (30)

(1) السابق، ص 232.

(2) السابق، ص 236.

(3) خطابي، لسانيات النص، ص 109، 110.

قَالَ قَاتٍ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ( 31 ) (سورة الشعراء) ويعلق عبد القاهر على الفصل في هذه الآيات بأنه جاء " على تقدير السؤال والجواب كالذي جرت به العادة فيما بين المخلوقين، فلما كان السامع إذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال: " وما رب العالمين " ؟ وقع في نفسه أن يقول: فما قال موسى له؟ أتى قوله: " قال رب السماوات والأرض " ، مأتى الجواب مبتدأ مفصلاً غير معطوف. وهكذا التقدير والتفسير أبداً في كل ما جاء فيه لفظ قال هذا المجيء. وقد يكون الأمر في بعض ذلك أشد وضوحاً<sup>(1)</sup>.

فترى النص تماسك وانسجم، وتسلسلت أحداثه في ثوبه القصصي الحوارية بتأثير فعل القول والفصل القائم على تقدير السؤال، وأمثلة ذلك كثيرة في النص القرآني الكريم، وفي غيره من منشور الكلام ومنظومه. وقد عمد عبد القاهر إلى تفسير الترابط بفعل القول على أساس تقدير السؤال نظراً منه لبعض الآيات التي تشي بذلك بصورة واضحة جلية؛ "فما هو في غاية الوضوح قوله تعالى: (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ( 57 ) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ( 58 ) (سورة الحجر) وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه جاء على معنى الجواب وعلى أن نُزِّلَ السامعون كأنهم قالوا: فما قال له الملائكة؟ فقيل: " قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين"<sup>(2)</sup>. غير أن ربط فعل القول بتقدير السؤال محتاج لمزيد من البحث والتقصي؛ فهل يطرد هذا التأويل على كل ربط من هذا القبيل؟ وهل يمكن اعتبار فعل القول رابطاً مستقلاً ذا قيمة شكلية ودلالية؟

## 6. الإحالة:

يمكن تلمس الإحالة في النحو العربي في أبواب مختلفة (الضمير، اسم الإشارة، الاسم الموصول) وسماها بعض النحاة المبهمات على أساس لدالية نظراً لغموضها وافتقارها إلى مفسر، وعموماً فالإحالة تكون بمثابة هذه العناصر الإحالية، وهي "قسم من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة، بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب فشرط وجودها هو النص"<sup>(3)</sup>، وقد تعرض عبد القاهر لهذه الأدوات في سياق حديثه عن النظم عموماً، ولم يفرد لها مباحث مستقلة كما هو الحال في الحذف والفصل والوصل، إلا أن الإشارات التي وردت فيها أدوات الإحالة تتم عن إدراك عبد القاهر لدور هذه الأدوات في النص وضرورة معرفة ما يزيل إبهامها كي يحصل فهم النص.

## الإحالة بالضمير:

وردت إشارة من عبد القاهر في معرض حديثه عن الفروق في الحال حيث تحدث عن الضمير في صدر جملة الحال كرابط بينها وبين صاحب الحال، "فإن قلت: إنما استحال في قولك: جاءني زيد وعمرو يسرع أمامه، أن ترد يسرع إلى زيد، وتنزله منزلة قولك: جاءني زيد يسرع، من حيث كان في يسرع ضمير لعمرو، وتضمنه ضمير عمرو يمنع أن يكون لزيد، وأن يقدر حالاً له. وليس كذلك: جاءني زيد يسرع؛ لأن السرعة هناك لزيد لا محالة"<sup>(4)</sup>، وقد جعل عبد القاهر الضمير مدخلاً لصحة الكلام واتساق المعنى بجعل الضمير لزيد دون عمرو.

ومع أن الإحالة بالضمير من عوامل الربط التي تفيد الكلام تماسكاً واتساقاً، وتتفي عنه التكرار، إلا أنها غير مستحسنة في كل مقام عند عبد القاهر؛ فقد تؤدي إلى اضطراب في القول<sup>(5)</sup>.

(1) الجرجاني دلائل الإعجاز، ص 241.

(2) السابق.

(3) الزناد الأثر، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1993، ص 118.

(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 216.

(5) خليل محمود، في اللسانيات ونحو النص، ص 228.

والحَكَم في ذلك أن اتساق النظم يفضي إلى اتساق دلالة النص وتماسكه، والعكس بالعكس، فإن كانت الإحالة موافقة لما يقتضيه علم النحو كانت عنصر تماسك، وإن خرجت عن قواعدها أفضت إلى الغموض واللبس وضعف انسجام دلالة النص، وقد أورد لذلك مثالا قول الفرزق من الطويل<sup>(1)</sup>:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

فقد دخل الغموض في بيت الفرزدق من ضعف بنية الإحالة في الضمير.

### الإحالة بالموصول:

أفرد عبد القاهر فصلا خاصا بالذي ورأى أن فيه "علما كثيرا، وأسراراً جمّة، وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس، وتتلج الصدر، بما يفضي بك إليه من اليقين، ويؤديه إليك من حسن التبيين"<sup>(2)</sup>. وقد ربطه بسر وضعه في اللغة وفائدة اجتلابه إليها، ونصّ على خاصية الرابطة، وأنه من أدوات تماسك الكلام ووصل بعضه ببعض؛ فقد "اجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بالجميل، كما اجتلب ذو ليتوصل به إلى الوصف بأسماء الأجناس، يعنون بذلك أنك تقول: مررت بزيد الذي أبوه منطلق، وبالرجل الذي كان عندنا أمس. فتجدك قد توصلت بالذي إلى أن أبنت زيدا من غيره بالجملة التي هي قولك: أبوه منطلق. ولولا الذي لم تصل إلى ذلك، كما أنك تقول: مررت برجل ذي مال: فيتوصل بذئ إلى أن يبين الرجل من غيره بالمال. ولولا ذو لم يتأت لك ذلك، إذ لا تستطيع أن تقول: برجل مال. فهذه جملة مفهومة إلا أن تحتها خبايا تحتاج إلى الكشف عنها"<sup>(3)</sup>. والوظيفة الإحالية قائمة مفهومة في كلام عبد القاهر المتقدم؛ فتوصلك بالذي إلى زيد هو إحالة الموصول إلى مفسره.

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 83.

(2) السابق، ص 199.

(3) السابق.



### الخاتمة:

نظر عبد القاهر الجرجاني إلى ظاهرة الإعجاز عبر فكرة النظم، وسعى إلى إثبات أن الكلام في كونه ينسق منعين هو سرّ بلاغته وتميّزه، ولكنّ بحثه لم يكن محجورا على البلاغة التقليدية؛ فقد تبيّن في عمله زوايا من الطرافة التي بدأت اللسانيات النصيّة الحديثة تستجلي جوانبه، وكان لعبد القاهر تفكير عميق فيه - وإن لم يستعمل المصطلحات المعاصرة- فقد كان له جهازه المصطلحي والمفاهيمي الخاصّ في فنّه.

وردت إشارات عبد القاهر حول التماسك النصي ماثورة في ثنايا حديثه عن ظاهرة الإعجاز، وتبيّن ثراء فكره النصي في حديثه عن النظم، وظهرت إشارات عميقة منه عن ألوان أخذ الكلام بعضه بحجزة بعض، وهذا مدخل طريف نحو تبيّن الترابط النصّي، وبمقاربة نظراته من منظور اللسانيات النصيّة ظهر ما أبداه من رؤى يمكن عدّها من استراتيجيات الترابط النصّي، كالحذف والعطف والفصل، وغيرها من أشكال اتساق النصّ وانسجامه.

### أهم النتائج:

- تجلّى في كتاب دلائل الإعجاز أشكال من الترابط النصّي.
- كان الأساس في نظر عبد القاهر إلى الترابط أساسا دلاليا، ولكنه مربوط بواسمات لغوية في بعض الأشكال.
- انبنت نظرة عبد القاهر إلى الترابط عبر نظرية النظم في بعدها البلاغي المحكوم بالبنية.
- اشتملت معالجة عبد القاهر لظاهرة الترابط على أبعاد طريفة حتى على مستوى النظرية اللسانية المعاصرة.

### أهم التوصيات:

- غرس المنجز البلاغي العربي في عمق اللسانيات النصيّة والتداولية المعاصرة.
- تدريس البلاغة العربيّة في مستويات الاختصاص على أساس ما بها من طرافة كشفت عنها اللسانيات الحديثة.
- تتبّع نظر العلماء العرب لقضية التماسك واستخلاص أبعاد مميّزة لنظريتهم تسمها وتجعلها متكاملة، وتعضد النظرية اللسانية الحديثة.
- البحث في جوانب الريادة في النظرية العربية في مجال اللسانيات النصيّة ومقارنتها بالنظرية المعاصرة بغير إسقاط ولا غلو.

### قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن منظور محمد بن علي الأنصاري، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت، دت. بحيري سعيد حسن:
2. دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 1999.
3. علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط1، 1997. الجرجاني عبد القاهر:
4. أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1991.
5. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992.
6. الخطابي محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991.
7. خليل إبراهيم محمود، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة، الأردن، ط2، 2009.
8. الزناد الأزهر، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993.
9. الشاوش محمد، أصول تحليل الخطاب، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1، 2001.
10. صمود حمادي، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد، طرابلس، ط3، 2010.
11. عبد الرازي أحمد، نحو النص بين الأصالة والحداثة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008.
12. فان دايك تون، علم النص مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد بحيري، دار القاهرة، القاهرة، 2001.
13. فضل صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 2004.
14. الفقي صبحي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2000.

جميع الحقوق محفوظة © 2021، الدكتور/ محمود بن يحيى بن أحمد الكندي، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر

العلمي. (CC BY NC)